أحمد بن يوسف الكاتب

نشأته وظهوره:

هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى بني عجل من قرية من قرى الكوفة تعرف بريا، يقال: إن أبا صبيح منها، وإنه مولى إسلام. حَدّث جماعة من الكُتَّاب أن السري بن بشر العجلي اشترى صبيحًا فأعتقه، وكان صبيح قبطيًا. ويقول الصولي: إن هذا هو الصحيح من نسبه، فهو من موالي مصر أسلم جد جده، وكان أحمد وأخوه القاسم شاعرين أديبين، وأولادهما جميعًا أهل أدب، يطلبون الشعر والبلاغة. وكان جده القاسم كاتبًا أيضًا، وهو على ديوان الغرب أيام بني العباس وفي آخر أيام بني أُمية، ثم كتب القاسم لعبد الله بن علي عم المنصور، وكتب يوسف ابنه، ثم كتب يوسف ليعقوب بن داود وزير المهدي.

فأحمد إذًا معرق في الكتابة، كان أبوه وجده كاتبين، ولا شك أنهما من المجودين في الإنشاء؛ لأنهما كتبا لعظماء في عهد عظمة الأمة، وكان يعقوب بن داود خاصة كاتبًا ممتازًا بين الكتاب، معدودًا في الدرجة الأولى، ومثله لا يرتضي لكتابته إلا من كان في صناعته آية، ومن كان له قديم يمتُّ إليه في أبواب الآداب يهون عليه تعاطيها، إذ يكون أنس بها في صباه، ورأى أمامه من يقتدي به ويجري في طريقه.

نشأ أحمد في أرقى بيئة يعيش فيها ناشئ، ولعله عرف وهو صبي عن هذه الصناعة -صناعة الكتابة- ما لا يتيسر لغيره ممن قضوا السنين يمارسونها. عرف ما

يصلح في معاناة أمور الملك والسلطان، وعرفنا أن أحمد بن يوسف ورث عن أبيه وجده حب الأدب والشعر، وما عرفنا بمن تخرج لأول أمره ولا سنة مولده.

ولنا أن نقول في أصل أحمد ونشأته: إنه عربي النشأة، بغدادي الدار، مصري الأصل والنبعة، نشأ كاتبًا شاعرًا يستفزه الطرب، ثم هو يقول الشعر فيجيد، وقد يمدح وقد يهجو على طريقة أبناء ذاك الزمان، وعُرف بحب المرح، وبتعاطي الشراب، والأنس إلى القينات، والافتتان بالجمال حيث كان. واشتهر باستهتاره في شهواته، وأنه مُسْتَرَقٌّ بلذاته.

كان أحمد يبرز في معرفة مواقع الاستشهاد بآيات الكتاب العزيز، ويقتبس منه للتدليل على قضاياه، وكان متمكنًا من الشرع، وخاصة فيما كان له صلة بالأحوال والمعاملات؛ أما درجته في رواياته في الحديث والأدب، فهذا مما أغفله من ترجموا له؛ وطريقته في إنشائه الاعتماد على المرسل من الكلام، في طابع نقي بريء من كل شائبة، خالٍ من التعمل، لا يعمد إلى السجع إلا في بعض التحميدات، وكانت الأسجاع في هذا الضرب من الإنشاء زيًّا سلطانيًّا، لم يسعه إلا تقليده، يطيل بعض الشيء عن الخلفاء على ما سنعرفه في كتابه الخميس الذي كان يقرؤه أهل خراسان، وهو على لسان المأمون، ولكنه على تطويله لا يأتي بجملة إلا إذا طرحتها اختل مكانها، هو يسجع وكل سجعة من سجعاته على الأغلب ذات معنى مستقل، فهو من هذا النظر صاحب طريقة متفرد فيها.

أما إذا كتب أحمد على لسان غيره، فيلتزم طريقة أخرى، لأن الكتابة الديوانية أو الرسمية أمست على عهده ذات قواعد ورسوم لا يحمد من كاتب، ولو كان من عيار أحمد بن يوسف، أن يتعداها، فتراه في كتاباته الخاصة مقلًّا من ألفاظه مكثرًا من معانيه، وفي كتابات الدولة يساير العرف والعادة؛ وفرق بين من يكتب لغيره ومن

يكتب لنفسه، هو يكتب لغيره ما يروقه ويريده عليه، ويكتب باسمه ما يعبر به عن ذات نفسه وشهوة قلبه.

لم يؤثر عن أحمد بن يوسف أنه أفرد موضوعًا بالتأليف، على عادة الكُتَّاب والعلماء، وما خلف غير ديوان رسائله. وقال ابن النديم: إن له رسالة الحسن. وعدها في جملة الكتب المجمع على جودتها، وحكمنا اليوم عليه برسائل قليلة أبقت عليها الليالي، وبعضها في شئون الدولة والخلافة، بل ما علمنا أيضًا إن كان دخل دواوين الخلافة لأول أمره أم تخرج في الكتابة في بيته، فاستفاضت شهرته، وعرف له الخاصة نبوغه، حتى وصل إلى المأمون.

قالوا: إن أول ما ارتفع به أن الأمين لما قُتل أَمَر طاهر بن الحسين الكاتب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا، فقال طاهر: أُريد أخصر من هذا؟ فوصف له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة؛ فأحضره لذلك، فكتب: «أما بعد[1]؛ فإن المخلوع قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، قد فرق بينهما حكم الكتاب في الولاية والحرمة، بمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن إجماع المسلمين، لقول الله عز وجل فيما اقتص من أنباء نوح وابنه: {إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح}، ولا طاعة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة ما كانت في ذات الله، وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه، الكائن له فيمن خان عهده، ونقض عقده، حتى ردَّ به الألفة بعد فرقتها، وجَمعَ به الأمة بعد شتاتها، وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها، وقد وجهت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع، وبالآخرة وهي البردة والقضيب، والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين».

---

(١) روى ياقوت في طبقات الأدباء هذا الكتاب برواية أخرى فيها زيادات قليلة.

وبعد هذا الكتاب انتشر صيت أحمد لتجويده في موضوع يصعب على كل كاتب أن يجود فيه لدقته، وقد أبدع في ذكر الغرض، وأتى بكلام فيه صنعة عجيبة لتخفيف مصيبة المأمون بأخيه الذي نازعه، فقلل من شأن الخطب بأخصر أسلوب. أما غيره من زملائه الكتاب فقد أطالوا، والإطالة في مثل هذا الموقف غير محمودة، فقدر لأحمد أن يبذَّهم لمعرفته بصناعته، وبما يجب أن يخاطب به الخليفة المأمون وهو بين حسرة وغبطة؛ وساعده على الظهور أن طاهر بن الحسين الخزاعي أكبر قواد المأمون والذي تولى إطفاء الفتنة وقتل الأمين كان كاتبًا من الطراز الأول، يعرف مقدار كد الأفهام وينثر المليح العالي من الكلام، ومثله من يحكم لأحمد بن يوسف أو عليه، فخصه لما رأى من طول باعه بالكرامة، واعتمد عليه من دون الكتاب.

وفي رواية ثانية: أن ذا الرياستين الفضل بن سهل لما أدخل رأس الأمين على أخيه المأمون أدخله على ترس بيده، فلما رآه سجد، ثم أمره المأمون أن ينشئ كتابًا عن طاهر بخبره ليقرأه على الناس، فكتبت عدة كتب لم يرضها واستطالها، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب، فلما عرض النسخة على ذي الرياستين رجع نظره فيها، ثم قال لأحمد: ما أنصفناك. وأمر له بصلات وكسي وكراع وغير ذلك، وقال له: إذا كان غدًا فاقعد في الديوان، وليقعد جميع الكُتَّاب بين يديك، واكتب إلى الآفاق.

وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية، وسواء كتب أحمد في خراسان أو بغداد عن يد الفضل أو عن يد طاهر، فقد علا بهذا الكتاب نجمه، وعُرف من بين كُتَّاب عصره فضله، وفي هذا الدور عرفه الرؤساء فقط.

بقي أن نعرف كيف اتصل بالمأمون، وصاحب الفضل لا يخفى، وربُّ العلم لا ينكر محله، فقد ذكروا أن أحمد بن أبي خالد الوزير كثيرًا ما كان يصف أحمد للمأمون، ويحمله على منادمته، وكان طاهر بن الحسين يريده ويزين أمره، وإبراهيم بن المهدي

يطريه ويقرظه، فأمر المأمون أحمد بن أبي خالد بإحضاره فلما وقف بين يديه قال: «الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي استخصك فيما استحفظك من دينه، وقلدك من خلافته، بسوابغ نعمه، وفضائل قسمه[1]، وعرفك من تيسير كل عسير جاولك[2] عليه متمرد حتى ذلّ، ما جعله تكملة لما حباك به من موارد أموره بنجح مصادرها، حدًّا ناميًا زائدًا لا ينقطع أولاه، ولا ينقضي أخراه، وأنا أسأل الله يا أمير المؤمنين من إتمام بلائه لديك، ومنّه عليك، وكفايته ما ولاك واسترعاك، وتحصين ما حاز لك، والتمكين من بلاد عدوك، ما يمنع به بيضة الإسلام، ويعزُّ بك أهله، ويبيح بك حمى الشر، ويجمع لك متباين الألفة، وينجز بك في أهل العناد والضلالة وعده، إنه سميع الدعاء، فعّال لما يشاء». فقال المأمون: أحسنت وبورك عليك ناطقًا وساكتًا. ثم قال بعد أن بلاه واختبره: يا عجبا لأحمد بن يوسف كيف استطاع أن يكتم نفسه؟!

وما ندري كم كان عمر أحمد يومئذ، ولا شك أنه كان على أبواب الكهولة، فنبل بالكتابة، وكان من قبل خاملًا، فاستحق اسمها على ما استحقها عبد الحميد بن يحيى والربيع والفضل بن الربيع ويعقوب بن داود ويحيى بن أبي خالد وجعفر بن يحيى وعبد الله بن المقفع والفضل بن سهل والحسن بن سهل ومحمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولي ونجاح بن سلمة وأحمد بن محمد المدبّر وأضرابهم.

جاء أحمد يكتب للمأمون بعد الفضل بن سهل والحسن بن سهل وعمرو بن مسعدة، وقبل أن يتصل بالمأمون لم يكن معروفًا إلا عند خاصة الكُتَّاب وأهل الأدب، حتى إذا أُعجب به الخليفة بعدت شهرته في العالمين وحان الوقت الذي ظهر

---

(١) القسم: النصيب.

(٢) في رواية طيفور في كتاب بغداد: وعرفك من تيسير كل عسير جاولك، وغلبة كل متمرد صاولك ما جعله... إلخ.

فيه ظهورًا لا خفاء بعده. مات كاتب المأمون أحمد بن أبي خالد، فسأل المأمون الحسن بن سهل عن رجل كفءٍ يخلفه، فذكر له أبا جعفر أحمد بن يوسف، وأبا عباد ثابت بن يحيى الرازي، قائلًا: إنهما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين وخدمته وما يرضيه. فقال له: اختر لي أحدهما، فقال الحسن: إن صبر أحمد على الخدمة، وجفا لذته قليلًا فهو أحبهما إليَّ؛ لأنه أعرق في الكتابة وأحسنهما بلاغة، وأكثر علمًا، فاستكتبه المأمون.

وكان أحمد يعرض الكتب ويوقّع ويخلفه أبو عباد إذا غاب عن دار المأمون، وكان أحمد بعد دخوله على المأمون يتقلد له ديوان السر، وبريد خراسان، وصدقات البصرة، وصير له المأمون نصف الصدقات بالبصرة طعمة له سبع سنين، وكان قبل ولايته البصرة سلَّفه الأهواز فصرف عنها. وما برح يزداد كل يوم رفعة ويعظم في عينه لصدقه ونصحه. كتب أحمد بن يوسف بين يدي المأمون فاستحسن خطه وقال له: لوددت أني أكتب مثل خطك وعلى صدقة ألف ألف درهم. فقال له: لو كان في الخط حظ ما حرمه رسول الله.

وكان المأمون لعلمه بقدم أحمد في صناعته إذا حضر أمر يحتاج فيه إلى كتاب يشهر ويذكر، أمره فكتب مثل كتاب الخميس وغيره. وحدّث عن نفسه قال: أمرني المأمون أن أكتب إلى جميع العمال في أخذ الناس بالاستكثار من المصابيح في شهر رمضان، وتعريفهم ما في ذلك من الفضل، فما دريت ما أكتب ولا ما أقول في ذلك، إذ لم يسبقني إليه أحد فأسلك طريقه ومذهبه، فَقِلْتُ[1] في وقت نصف النهار، فأتاني آتٍ في منامي فقال: قل فإن في ذلك أنسًا للسابلة، وإضاءة للمتهجدين، ونفيًا لمظان الريب، وتنزيهًا لبيوت الله عن وحشة الظلم.

(١) القائلة: نصف النهار. قال قيلًا وقائلة وقيلولة ومقالًا ومقيلًا وتقيل نام فيه فهو قائل.

أخذت الدنيا تنهال على أحمد في وزارته، ومن يتعلق بخدمة المأمون ولا يسعد! حتى أمسى بتليده وطريفه عنوان المجد والعظمة. حدثوا عنه أن عبد الله بن طاهر لما خرج من بغداد إلى خراسان قال لابنه محمد: إن عاشرت أحدًا بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فإن له مروءة. فما عرّج محمد حين انصرف من توديع أبيه على شيء حتى هجم على أحمد في داره فأطال عنده، ففطن له أحمد فقال: يا جارية غَدّينا، فأحضرت طبقًا وأرغفة نقية وقدمت ألوانًا يسيرة وحلاوة، وأعقب ذلك بأنواع من الأشربة في زجاج فاخر وآلة حسنة. وقال: ليتناول الأمير أيها شاء، ثم قال له: إن رأى الأمير أن يشرّف عبدَه ويجيئه في غدٍ أنعم بذلك.

قالوا: فنهض محمد وهو متعجب من وصف أبيه له، وأراد فضيحته فلم يترك قائدًا نبيلًا، ولا رجلًا مذكورًا من أصحابه إلا عرفهم أنه في دعوة أحمد بن يوسف، وأمرهم بالغدو معه، فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أهبته، وأظهر مروءته، فرأى محمد من النضائد والفرش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه، فلما رفعت الموائد؛ وكانت كما ادعى الراوي ثلثمائة مائدة، وقد حف بثلثمائة وصيفة، ونقل إلى كل مائدة ثلثمائة لون في صحاف الذهب والفضة، قال ابن طاهر: هل أكل مَن بالباب؟ فنظروا فإذا جميع من بالباب قد نصبت لهم الموائد فأكلوا، فقال: شتان بين يوميك يا أبا جعفر. فقال: أيها الأمير، ذاك قوتي، وهذه مروءتي.

وإذا استجزنا حذف ما في هذه الحكاية من المبالغة -ومثلها وقع للحسن بن سهل مع عمرو بن مسعدة على ما قرأته في الكلام على حياة عمرو، والقصتان منقولتان من كتاب «ملح الممالحة» لابن باقيا الكاتب- إذا حذفنا جانب الإغراق في الوصف على ما قد يجاوز قدرة الخليفة دع وزيره، يبقى من القصة طرف صالح، يصح أن يحكم به على نعمة أحمد في عهد سيده المأمون. قالوا: وكان المأمون يقول

لأحمد، وقد ولى أخاه القاسم خراج السواد فجباه فضلًا مما جباه غيره في سائر أيام المأمون: يا أحمد، القاسم يجمع، ونحن نفرق. عن محمد بن عبد الملك قال: وهب لي أحمد بن يوسف الكاتب على ظَهْر يدٍ ألفي ألف درهم تفاريق.

ومن أظهر صفات أحمد بن يوسف، وهذه هي التي كان يعجب بها المأمون، شدة عارضته، وقوة بديهته، والبديهة يظهر أثرها في تدبير الملك، وما يعرض للخليفة من شئون تحتاج إلى أن يبت فيها حالًا من جواب على سؤال، وإعطاء رأي في معضلة، في ساعة يكون فيها الكاتب قد عاوده السأم والتعب، واضطراب النفس وموت الخاطر، وقد تطلب إليه معالجة أصعب الموضوعات، في أضيق الأوقات، وأتعب الساعات.

ذكروا أن أحمد جلس يومًا وهو زير يقرأ الكتب بين يدي المأمون، فمرت قصة أصحاب الصدقات، فقال المأمون لأحمد: انظر في أمرهم، قد كثر ضجيجهم، فقال: قد نظرت في أمرهم وفررته[1]، ولكنهم أهل تعدٍّ وظلم، وبالباب منهم جماعة، فقال المأمون: أدخلوهم إليَّ، فدخلوا فناظروه فاتجهت الحجة عليهم، فقال أحمد: هؤلاء ظَلَّموا رسول الله، كيف يرضون بعده، قال الله عز وجل: {ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون}[2]، فعجب المأمون من حسن انتزاعه، وحضور مراده في وقته، وقال: صدقت يا أحمد وأمر بإخراجهم.

وكثر طلاب الصدقات بباب المأمون مرة، فكتب إليه أحمد: «داعي نداك يا أمير المؤمنين ومنادي جدواك جمعا الوفود ببابك، يرجون نوالك المعهود، فمنهم من

(١) من المجاز فررت عن الأمر: بحثت عنه، وفر عن هذا الأمر وفر فلان عما في نفسه.
(٢) يلمزك: يعيبك.

يمتُّ بحرمة، ومنهم من يُدِلُّ بخدمة، وقد أجحف بهم المقام، وطالت عليهم الأيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيبه، ويحقق حسن ظنهم بطَوْله[1]، فعل إن شاء الله».

فوقّع المأمون: الخير متبع، وأبواب الملوك مغانٍ لطالبي الحاجات، ومواطن لهم، ولذلك قال الشاعر:

يسقط الطير حيث يلتقط الـ ـحبَّ ويغشى منازل الكرماء

فاكتب أسماء من ببابنا منهم، واحكِ مراتبهم، ليصل إلى كل رجل قدر استحقاقه، ولا تكدّر معروفنا عندهم بطول الحجاب، وتأخير الثواب، فقد قال الشاعر:

فإنك لن ترى طردًا لحرّ كإلصاق به طرف الهوان

ومن أخبار أحمد وفيها صورة أخلاقه، أنه خاصم رجلًا بين يدي المأمون، وكان صغا المأمون إليه على أحمد، ففطن لذلك فقال: يا أمير المؤمنين إنه يستملي من عينيك ما يلقاني به، ويستبين بحركتك ما تُجِنّهُ له، وبلوغ إرادتك أحبُّ إليَّ من بلوغ أملي، ولذة إجابتك أمتع عندي من لذة ظفري، وقد تركت له ما نازعني فيه، وسلمت له ما طالبني به. فاستحسن ذلك المأمون.

وكان واسع الصدر كأكثر من يلي شيئًا من أمر الأمة من العظماء. قيل: إن أبا العتاهية أتى أحمد فحُجب عنه فقال:

متى يظفر الغادي إليك بحاجة ونصفك محجوب ونصفك نائم

---

(١) الطول: الفضل، والسيب: العطاء.

ولنا أن نستدل على غنى أحمد بن يوسف أنه أهدى إلى المأمون لما استكتبه لوزارته، واستخصه في يوم مهرجان، هدية بألف ألف درهم وكتب إليه:

على العبد حق فهو لا شك فاعله ... وإن عظم المولى وجلّت فضائله
ألم ترنا نُهدي إلى الله ما له ... وإن كان عنه ذا غنًى فهو قابله
ولو كان يُهدى للمليك بقدره ... لقَصَّرَ عُلُّ البحر عنه وناهله[1]
ولكننا نُهدي إلى من نجلّه ... وإن لم يكن في وسعنا ما يشاكله

وأهدى إليه في عيد وكتب إليه: هذا يوم جرت فيه العادة بإهداء العبيد للسادة، وقد أهديت لأمير المؤمنين قليلًا من كثيره عندي. فقال المأمون: عاقل أهدى حسنًا.

كان إعجاب الخليفة بأحمد كثيرًا، وبذلك ندفع ما قاله صاحب غرس النعمة في كتاب الهفوات، ونقله ياقوت عنه من أن المأمون كان سب موت وزيره، والرواية: أن المأمون كان إذا تبخر طُرح له العود والعنبر، فإذا تبخر أمر بإخراج الجمرة ووضعها تحت الرجل من جلسائه! إكرامًا له، وحضر أحمد بن يوسف يومًا، وتبخر المأمون على عادته، ثم أمر بوضع الجمرة تحت أحمد بن يوسف فقال: هاتوا ذا المردود. فقال المأمون: ألنا يقال هذا؟ ونحن نصل رجلًا واحدًا من خدمنا بستة آلاف ألف دينار، إنما قصدنا إكرامك، وأن أكون أنا وأنت قد اقتسمنا بخورًا واحدًا، يُحضر عنبر، فأحضر منه شيء في الغاية من الجودة، في كل قطعة ثلاثة مثاقيل، وأمر أن تطرح قطعة في المجمر ويبخر بها أحمد، ويدخل رأسه في زيقه حتى ينفذ بخورها، وفُعل به ذلك بقطعة ثانية وثالثة وهو يستغيث ويصيح، وانصرف إلى منزله وقد احترق دماغه واعتل ومات سنة (٢٣١)، وقيل: (٢١٤).

(١) النهل -محركة-: أول الشرب، والعل: الشربة الثانية.

وهذه القصة منقوضة بالبداهة، ذلك أن أحمد بن يوسف يعرف مقام الخليفة، ولا يجرؤ أن يقول ما نسب إليه في حضرته ولا في غيبته، والمأمون صاحب النفس العظيمة يعرف قدر الرجل، فلا يرى مهما كان ذنبه أن يهلكه بالعنبر في مجلسه، ولكن الرجل مات حتف أنفه. وربما وضع هذه القصة من أراد إسقاط المأمون، ونسبة ضعف العقل إلى وزيره.

ولا بد من القول أن أحمد بن يوسف كان يحسن سياسة خليفته ويستميت في حبه ودعوة الناس إليه، وكانت مكانته في الأدب والظرف وفاء مكانته في السياسة. قال بعض القدماء في وصف كلامه: لم أرَ كلامًا أحسن وصلًا، ولا أمتن فصلًا، ولا أمنع إنذارًا، ولا أقنع إعذارًا، ولا أرأب لصدع، ولا أشعب لجمع من كلام أحمد بن يوسف. وقال جعفر بن يحيى: عبد الحميد أصل، وسهل بن هارون فرع، وابن المقفع ثمر، وأحمد بن يوسف زهر، وناهيك بها شهادة من كاتب مثلهم.

شيء من كلامه:

من مطولات أحمد بن يوسف كتاب كتبه في الإفاضة بمحامد المأمون، ولعله كُتب إلى شيعة خراسان ليستميل قلوبهم، جاء فيه في ولاية المأمون لعلي بن موسى الرضا: «وأحسن جزاء أمير المؤمنين ومَثُوبته، على صلة رحم رسول الله التي هي رحمه وقرابته، واختياره لولاية عهده الأمير الرَّضا علي بن موسى، حفظه الله، حين أحمد سيرته، ورضي محبته، وعرف استقلاله، بما قلده في هديه ودينه ووفائه، بما أكد الله به عليه، ومن عهد أمير المؤمنين أيده الله في اعتيامه[1] من آزره وآساه بما شَفَع رأيه، وأنفذ تدبيره، حين همَّ لاستصلاح ما استرعاه الله من أمور عباده، لما انتقى القائم بدعوته، ورئيس شريعته الأمير ذا الرياستين رحمه الله، فاتخذه مكاتفًا ظهيرًا

(١) الاعتيام: الاختيار.

ووزيرًا دون من سواه، فاتبع منهاج أمير المؤمنين، أيده الله، وسار بسيرته، شرقًا وغربًا، وغورًا ونجدًا، موفيًا بعهده، قائمًا بدعوته، مقتفيًا لأثره وسنته، فحسم الله به الأدواء، وقمع به الأعداء، من عتاة الأمم وطواغيت الشرك، وأباد على يده أهل الشقاق والنفاق، في كل أُفق وطرف، بِجَدّ أمير المؤمنين، أعزه الله، وبركة سياسته ودولته، ونُجح سعي من قام بنُصرة من قام بحقه، وأنار برهانه حتى توفاه الله عز وجل، حين بلغ همته وغايته، وحُمَّ أجله، وانقطعت مدته، سعيدًا حميدًا، شهيدًا فقيدًا، عند إمامه أكرمه الله، وعند الخاصة والعامة. وكان من إجلال أمير المؤمنين الحادثُ الذي نزل به، فأحيا آثاره، بوصف محاسنه، في مشاهده ومجامعه، وترحمه عليه عند ذكره، وحفظه في لحمته، وأهل حرمته، وفيمن كان يحمد الله على طاعته ونصيحته، ما أتم به نعمته، عندنا وعندكم معشر الشيعة، فقد أصبح أمره بكم متصلًا، وموقعه من جماعتكم متمكنًا، بقبضكم ما قبضه، وبسطكم ما بسطه، من لوعه المصيبة وحسن العقبي».

وقال: «فأية نعمه أجل قدرًا ، وأسني أمرًا، معشر الشيعة من نعمة أمير المؤمنين، أيده الله، عند الأمير ذي الرياستين، ومراتبه التي رتبه بها، فإنه أعطاه رياسة الحرب، ورياسة التدبير، وعقد له على رأسهما عَلَمًا في دعوته وقلده سيفهما، وختمه بخاتم الخلافة وخاتم الدولة، وجعل صِلاته بين صاحب حَرَسه وصاحب شرطته، ومسيره بين أمير المؤمنين وبينهما، أمامه وخلافه، وصير له الجلوس على الكرسي بحضرته، في صدر كل مجلس جلس، إلا أن يؤثر به من أحب من أبناء الخلفاء، وقدمه في دخول دار الأمير راكبًا، إلى أقصى مكان ينتهي إليه أحدٌ من بني هاشم، لأنه منهم وأعظمهم غناء عنهم، فسماه صاحب دعوته وسيفه علي عدوه؛ وبابه الذي يدخل إليه منه، وولاه خيوله في أقطار الأرض، ومقدَّمته بحضرته، وقلده من الثغور ما قد علمت، بما أفرده في عهده، أي ما أنفذه من أمره في جميع سلطانه وملكه، من

مشارق الأرض ومغاربها، وأين يأتي الوصف علي ما فضله به، وقدمه وشرفه علي الناس كافة، ولكنا نُخْطر بذكره، ثم نكل السامعين إلي ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبلغها الصفة، ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته، تولى غسله وتكفينه، ومباشرته لجهازه، إلى حفرته بيده، وقاسى من الغصص وبرحاء[1] الحزن، وإذراء العبرة، وإراقة الدمعة، ما حال بينه وبين الكلام، وكاد يمنعه من القول والدعاء في صلاته عليه، وحَفِظ أهل الحرمة به رعاية له فيهم، ووفاء بعهده من بعده، وأقر خاصته وقواده وعمّاله وكتّابه علي مراتبهم، وحمد بحمده وذم بذمه وجدد لجنده...».

وبعد أن عدد ما صنع المأمون من الأعمال الحسنة قال خطابًا للمأمون: «فيأيها الإمام المنصور المهدي الرشيد، حُزْت فضائل الآباء، واهتديت بهدي الأنبياء، أنشكرك عن الإسلام، فأنت القائم به الداعي له، والناصر لحقه، أم نشكرك عن الأمصار، فأنت المفتتح لممتنعها عنوة، والمتطول على أهلها بالرحمة، والمتعطف عليهم بحسن الفائدة، بعد ما هيجت منك سَوْرة الغضب، فأطفأت نارها، وأخمدت لهبها، وعُدت على ما من سفِه وأضاع حظه. أم نشكرك على المساجد، فأنت الذي أسستها على التقوى، وعمرتها بتلاوة القرآن، وطهرت المنابر وركبتها، تعلوها صائمًا، وتنطق عليها صادقًا، وتدعو إلى الرشد عليها ناصحًا، وتختم القرآن قبل أن تبدأها محسنًا، وتتلو من قوارعه ما تصيخ له الأسماع، وتلين له القلوب. أم نشكرك على البيت العتيق، والركن والمقام والحجر وزمزم ومشاعر الحج، وأنت ذببت عنها، وأعدت إليها عهدها في مبعث نبيها، فأمنت النازع إليها من كل فج عميق، والحالّين بها من الركّع والسجود. أم نشكرك عن رسول الله فيما حفظت فيه من عترته، بعفوك عن مجرمهم، ومضاعفتك ثواب محسنهم، وإحيائك من أمرهم ما كان قد اندرس

(١) برحاء الحمى وغيرها: شدة الأذى.

وانطمس بعد نبي الله، وقد راعيت منه في قرابته وقرابتك، وذوي رحمه ورحمك، ما ضيع الناس، ووصلت منهم ما كان وصله، إذ كان الله عز وجل قد فرض صلة الأرحام، فكان أطوع خلق الله فيما فرض عليه؛ أم نشكرك على العوام، فقد ألبست المسلمين ثوب الأمن، وأذقتهم طعم السعة والرفاهة، وعدلت بينهم بالإنصاف، وتوليت دونهم النَّصَب، وآثرتهم بالراحة. أم نشكرك عن الملوك والقواد والأجناد، فأنت الذي رفعت منازلهم، ووفرت عددهم، فلم يكن في دهر أحد من الخلفاء، أسعد ولا أحظى منهم في سلطانك، بما بذلت لهم من المعاون، ووليتهم من الثغور والأمصار، وأدررت عليهم من الأرزاق والخواص. أم نشكرك عن الأحكام والسنن، فأنت الذي أنهجت سبيلها، فأوجبت فرضها ونافست في أهلها....».

***

وقَّع إلى عامل قد أخَّر حمل المال: قد استبطأك الإغفال، وأبطرك الإهمال، فما تصحب قولك فعلًا، ولا تتبع وعدك إنجازًا، وقد دافع بمال نُجِّم[1] لزمك حمله، حتى وجب عليك مثله، فاحمل ثلاثة أنجم، ليكون ما يتعجل منك أداء ما أُخر عنك إن شاء الله.

***

ووقَّع إلى عامل ظالم: الحق طريق واضح لمن طلبه، تهديه محجته، ولا يخاف عثرته، وتؤمن في السر مغبَّته، فلا تستقلِن منه، ولا تعدلن عنه، فقد بالغت في مناصحتك، فلا تحوجني إلى معاودتك، فليس بعد التقدمة إليك، إلا سطوة الإنكار عليك.

***

(١) نجم المال: أداه نجومًا؛ أي في أوقات مضروبة.

ووقَّع إلى عامل ذكر أنه قد أصلح ما تحت يده: أنا لك حامد فاستدم أحسن ما أنت عليه، يدم لك أحسن ما عندي، واعلم أن كل شيء لا يزاد فيه ينقص، والنقصان وإن قل يمحق الكثير، كما ينمي على الزيادة القليل.

***

ووقَّع في كتاب: مستتم الصنيعة مَن صابرها، فعدل زيغها، وأقام أودها، صيانة لمعروفه، ونصرة لرأيه، فإن أول المعروف مستخف، وآخره مستثقل؛ تكاد أوائله تكون للهوى، وأواخره تكون للرأي؛ ولذلك قيل: ربُّ الصنيعة أشد من ابتدائها.

***

ووقَّع إلى بعض العمال في العناية بأحدهم: أنا بفلان تام العناية، وله شديد الرعاية، وكنت أحب أن يكون ما أرعيته طرفك من أمره في كتابي، مستودعًا سمعك من خطابي، فلا تعدلن بعنايتك إلى غيره، ولا تمنحن بعقدك سواه، حتى تنيله إرادته، وتتجاوز به أُمنيته. إن شاء الله.

***

ومما نُسب إليه في ذم بخيل:

كأن البخل والشؤم صار معًا في سهمه، وكانا قبل ذلك في قِسْمه، فحازهما بالوراثة، واستحق ما استملك منها بالشفعة، وأشهد على حيازتهم أهل الدين والأمانة، حتى خلصا له من كل مانع، وسلما له من تبعة كل منازع، فهو لا يصيب إلا مخطيًا، ولا يحسن إلا ناسيًا، ولا ينفق إلا كارهًا، ولا ينصف إلا صاغرًا.

وفي مثله:

وصل كتابك فرأيناك قد حليته بزخارف أوصافك، وأخليته من حقائق إنصافك، وأكثرت فيه الدعاوى على خصمك، من غير برهان أتيت به على دعواك وزعمك...

وكتب إلى عبد الله بن طاهر عند خروج عبيد الله بن السريِّ إليه يهنئه بذلك الفتح: بلغني -أعز الله الأمير- ما فتح الله عليك، وخروج ابن السريِّ إليك، فالحمد لله الناصر لدينه، المعز لدولة خليفته على عباده، والمذل لمن عَنَدَ عنه وعن حقه ورغب عن طاعته، ونسأل الله أن يظاهر له النعم، ويفتح له بلدان الشرك، والمد لله على ما والاك مذ ظعنت لوجهك، فإنا ومن قِبَلنا نتذاكر سيرتك في حربك وسلمك، ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة والليان في مواضعهما، ولا نعلم سائس جند ولا رعية عدل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدرة عمن آسفه وأضغنه عفوك. ولقلَّ ما رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكلًا على ما قدمت له أُبوته، ومن أُوتي حظًّا وكفاية، وسلطانًا وولاية، لم يخلد إلى ما عنا له حتى يخلَّ بمساماة ما أمامه، ثم لا نعلم سائسًا استحق النجح لحسن السيرة وكف مَعَرَّة الأتباع استحقاقك، وما يستجيز أحد ممن قبَلنا أن يقدّمَ عليك أحدًا يهوى عند الحاقة[1]، والنازلة المعضلة، فليهنَكَ منة الله ومزيده، ويسوغك الله هذه النعمة التي حواها لك بالمحافظة على ما به تمت لك من التمسك بحبل إمامك ومولى جميع المسلمين، وملّاك وإيانا العيش ببقائه، وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قِبَلنا مكرمًا مقدمًا معظمًا، وقد زادك الله في أعين الخاصة والعامة جلالة وبجالة، فأصبحوا يرجونك لأنفسهم، ويعدّونك لأحداثهم ونوائبهم، وأرجو أن يوفقك الله لمحابّه كما وفق لك صنعه وتوفيقه، فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ولم تزدك إلا تذللًا وتواضعًا، فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك والسلام.

---

(١) الحاقة: النازلة الثابتة كالحقة.

وكتب إلى عبد الله بن طاهر أيضًا عن المأمون يعزيه عن ديار مصر وتسليم العمل إلى إسحاق بن إبراهيم: أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين قد رأى تولية إسحاق بن إبراهيم ما يتولاه من أعمال المعاون بديار مصر، وإنما هو عملك نقل منك إليك، فسلمه من يدك إلى يدك والسلام.

لما توفي طاهر بن الحسين بخراسان، وعبد الله بن طاهر في وجه نصر بن شبث، كتب إليه أحمد بن يوسف يعزيه عن نفسه:

أما بعد؛ فإنه قد حدث من أمر الرزء العظيم بوفاة ذي اليمينين ما إلى الله عز وجل فيه المفزع والمرجع، وفيه عليه المستعان، وإنا لله وإنا إليه راجعون، اتباعًا لأمر الله، واعتصامًا بطاعته، وتسليمًا لنازل قضائه، ورجاء لما وعد الصابرين من صلواته ورحمته وهداه، وعند الله نحتسب مصيبتنا به. وقد كان سبق إلى القلوب عند بداهة الخبر من اللوعة، واضطلاع الفجيعة، ما كنا نخاف إحباطه من الأجر، لولا ما تدارك الله به من الكر بما وعد أهل الصبر؛ فنسأل الله أن يرأب[1] هذه الثلمة، ويسد هذه الخلة، بأمير المؤمنين أولًا وبك ثانيًا، وأن يعظم مثوبتك، ويحسن عقباك، ويخلف بك ذا اليمينين، ويعمر بك مكانه من أمير المؤمنين ومن كافة المسلمين. فأما ما يحتاج إليه من التسلية والتعزية، فإنك في فضل رأيك، واتساع لُبِّك، في حال العزة والنماء، لم نكن نخلو من عوارض الذكر، وخواطر الفكر، فيما تعرو به الأيام من نوائبها، وتبعث به من حوادثها، وفي هذا لمن وفق له إعداد للنوازل، وتوطين الأنفس على المكاره، فلا يكون معه هلع، ولا إفراط جزع، بإذن الله، مع أن مرد كل جزع إلى سلوة، ولا ثبات عليها، فأولى بالراغب في ذات الله أن يهتبل[2] مثوبته في

(١) رأب الصدع: أصلحه وشعبه كارتأبه. والثلمة بالضم: فرجة المكسور والمهدوم، والخلة بفتح الخاء: الحاجة والفقر والخصاصة.

(٢) اهتبل كلمة حكمة: اغتنمها.

أوانها من بعض الأسى، وفجاءة النكبة، وأولى بذي اللب إذا علم ما هو لا بد صائر إليه، ألا يبعد منه إبعادًا يلزمه التفاوت عند التأمل، واختلاف الحالين في بُعد الأمد بينهما؛ وقد كنت أحب ألا أقنع في تعزيتك برسول ولا كتاب، دون الشخوص إليك بنفسين لو أمكنني المسير؛ إجلالًا للمصيبة، وتأنسًا بقربك، بعد الذي دخلني من الوحشة، فقد عرفت ما خصني من المُرْزِئة[1] بذي اليمينين، كما كنت أتعرف من جميل رأيه، وعظيم بره حاضرًا، وما كان يذكرني به غائبًا؛ ذكره الله في الرفيق الأعلى.

***

وأخصر من هذا ما عزى به ولد رجل من آل الربيع، وكان له مواصلًا فقال: عظَّم الله أجركم، و جبر مصابكم، ورجَّه الرحمة إلى فقيدكم، وجعل لكم من وراء مصيبتكم حالًا تجمع كلمتكم وتلم شعثكم، ولا تفرق ملأكم.

وسمع قول عليّ: لا تكونن كمن يعجز عن شكر ما أُوتي، ويلتمس بالزيادة فيما بقي. فكتب: أحق من أثبت لك العذر في حال شغلك من لم يخل ساعة من برِّك في وقت فراغك.

***

ومن كلامه يعتذر إلى بعض الأخلاء: لي ذنوب إن عددتها جلت، وإن ضممتها إلى فضلك حسنت، وقد راجعت إنابتي، وسلكت طريق استقامتي، وعلمت أن توبتي في حجتي، وإقراري أبلغ في معذرتي؛ فهذا مقام التائب من حرمه، المتضمن حسن الفيئة[2] على نفسه، فقد كان عقابك بالحلم عني، أبلغ من أمرك بالانتصاف

(١) المرزئة: كالرزء والرزيئة (ج) أرزاء ورزايا.

(٢) الفيئة: الرجعة.

مني، فإن رأيت أن تهب لي ما استحققته من العقوبة، لما ترجوه من المثوبة، فعلت إن شاء الله.

***

وكتب في الذم: أما بعد؛ فلا أعلم للمعروف طريقًا أحزن ولا أوعر من طريقه إليك، ولا مستودعًا أقل زكاءً، ولا أبعد ثمرة خير من مكانه عندك؛ لأنه يحصُل في حسب دنيّ، ولسان بذيّ، ونسب قصيّ، وجهل قد ملك طباعك، فالمعروف لديك ضائع، والشكر عندك مهجور، وإنما غايتك في المعروف أن تحرزه، وفي وليّه أن تكفر به.

ومن كلامه: قد كان كتابي نفذ إليك بما كان غيره أولى بي، وألزم لي في حق الحرية والكرم، اللذين جعلا لك إرثًا، والشرف والفضل اللذين قسما لك حظًّا، ولكني دُفعتُ من اتصال الزلل، والإخلال بالعمل، إلى ما اضطرني إلى محادثتك، ودعاني إلى مخالفتك لأجَلّي عني هبوة[1] الاتهام، وأصرف عنك عارض الملام، وقد جرى لك المقدار بالسؤدد الذي خصك الله بمزيته، وأفردك بفضيلته، فليس يحاول أحد استقصاءً عليك إلا عرض دونه حاجز من واجبك، يضطره إلى ذلة التنصل إليك، ويحور ذلك عن التعمد.

وكتب إلى صديق له: هذا يوم رقت حواشيه، وبدت تباشير الحبور فيه، والمرء بأخيه كثير، وبمساعدته جدير، وأنت قطب السرور، ونظام الأمور، فلا تتأخر فنقلّ، ولا تنفرد عنا فنذلّ.

***

(١) الهبوة: الغبرة.

وكتب إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي وقد زاره إبراهيم بن المهدي: عندي من أنا عنده، وحجتنا عليك إعلامنا لك، والسلام.

***

وكتب: عندي فلان وفلان؛ فإن كنا من شأنك فقد آذناك.

***

وكتب إلى صديق له يستدعيه: يوم التلاقي قصير، فأعن عليه بالبكور.

***

وكتب إلى صديق له يستدعيه:

إن كنت تنشط للصبوح فيومنا ... يوم أغرُّ مُحَجَّل الأطراف

وترى السحابة في السماء تعلقت ... وكأنما كسيت جناح غُداف[1]

طورًا تبلل بالرذاذ وتارة ... تهمي عليك بدلوها الغراف

فانعم صباحًا وأتنا متفضلًا ... ودع الخلاف فليس يوم خلاف

***

وكتب إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلها:

«بلغني استقلالك لما ألطفت[2]، والذي نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك في البر، فأهدينا هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم».

---

(١) الغداف: كغراب، غراب القيظ والنسر الكثير الريش (ج) غدقان.

(٢) ألطفه بكذا: بره.

وكان يقول في إبراهيم بن المهدي: القلوب من غِنائه على خطر، فكيف الجيوب.

***

كتب إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود: بارك الله في مولودك الذي أتاك، وهنأك نعمته بعطيته، وملّاك كرامته بفائدتك، وأدام سرورك بزيادته، وجعله بارًّا تقيًّا، ميمونًا مباركًا زكيًّا، ممدودًا له في البقاء، مُبَلَّغًا غاية الأمل، مشدودًا به عضدك، مثكَثّرًا به ولدك، مُدامًا به سرورك، مدفوعًا به الآفات عنك، مشفوعًا بأكثر العدد من طيب الولد.

***

وله في مثل ذلك: هنأك الله هذه الفائدة التي أفادكها، وبارك الله في الهبة التي رزقكها، وشفعها بإخوة متواترين، يسرونك في حياتك، ويخلفونك في عقبك.

***

وله: وهنأ الله أمير المؤمنين نِعمه، وملّاه كرامته، وأولى له فتوحه، وأدام إعزازه، وتولى حياطته وكفايته، فيما دنا منه وما غاب عنه، وأطال الله بقاءه والإمتاع به.

***

وكتب في تهنئة بمولود: أما بعد؛ فليس من أمر يجعل الله لك فيه سرورًا إلا كنتُ به بهجًا، أعتدُّ فيه بالنعمة من الله الذي أوجب عليَّ من حقك، وعرَّفني من جميل رأيك، فزادكَ الله خيرًا، وأدام إحسانه إليك، وقد بلغني أن الله وهب لك غلامًا سريًّا[1] أجمل صورته، وأتم خلقه، وأحسن فيه البلاء عندكَ، فاشتد سروري

(١) السري: الظريف.

بذلك، وأكثرت حمد الله عليه، فبارك الله فيه، وجعله بارًّا تقيًّا، يشد عضدك، ويكثر عددك، ويُقر عينك.

***

وله في فتح السند: الحمد لله ولي الحمد، وأهل الثناء والمجد، خالق الخلق، ومدبر الأمر، المسبغ على عباده، والموجب عليهم حجته، فليسوا يرجون إلا سعة فضله، ولا يحذرون إلا ما اجترحوا من معصيته، لما سبق من جزيل إحسانه، وتظاهر من امتنانه، وتقدم به الإعذار والإنذار اللذان لا يستخف بما عظم منهما، إلا من استحوذ عليه الشيطان، واستولى عليه الخذلان، وقاده الحَيْن إلى موارد الهلكة.

***

وله تحميد إلى الولاة عن الخليفة: أما بعد؛ فالحمد لله ذي المنن الظاهرة والحجج القاهرة، الذي قطع بينه وبين عباده المعذرة، ورادف عليهم البينة، ومهلة النظرة[1]، وجعل ما آتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم المكتوب، وما ذخر له من ثواب الآخرة بالنجح المطلوب، فهم في العاجلة شركاء في النعمة، وفي الآجلة شتى في الرحمة، يختص بها أهله، المنتفعين بما ضرب لهم من الأمثال، وتصريف الحال بعد الحال، المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مدد آجالهم، قبل حلول ما يتوقع، وفوت ما لا يرتجع.

***

سمع أحمد لأخيه شعرا قد كتب به إلى هويّ[2] له:

أيـا بـاذلًا ودًّا لمـن لا يـشاكله ... يـساعده في حبـه ويواصـله

عليك بمـن يـرضى لـك النـاس وده ... أواخـره محمـودة وأوائلـه

---

(١) النظرة كفرحة: التأخير في الأمر.

(٢) الهوي كغني: المهوي؛ أي الذي يهوى ويعشق.

فكتب إليه أحمد: وفقك الله يا أخي للسداد، وهداك للرشاد، قرأت لك شعرًا أنفذته إلى من تخطب مودته، وتستدعي عشرته، فسرني شغفك بالأدب، وساءني اضطرابك في الشعر، وليس مثلك من أخرج من يده شيئًا يعود بعيب عليه، وأعيذك بالله أن تلج لجة الشعر بلا عوم ينجيك منها، وسباحة تصدرك عنها، فتنسب إلى قبيح أمر هويت النسبة إلى حسنه، فاعرف الشعر قبل قوله، واستعن على عمله بأهله، ثم قل منه ما أحببت، إذا عرفت ما أوردت وأصدرت، وهذه أبيات على وزن أبياتك نظمتها بمثل ما نثرته لك وهي:

أبا حسن عانِ الدراية قبل ما ... تريغ[1] من الشعر الذي أنت قائله
ففي الشعر آداب كثير فتونها ... وباطل هو إن تَعَنَّاك باطله[2]
وحسبك عجزًا بامرئ متغزل ... إذا عَيَّ بالأمثال فيمن يواصله
يهون على معشوقه ما أعزه ... فتنقلب الأحوال فيما يحاوله
فدونك نصحًا من خبير مجرب ... قضى آخرًا أفضت إليه أوائله
ومستأنف الأيام منها كسالف ... فبالسالف الماضي فقس ما تزاوله

ولأحمد بن يوسف شعر رقيق كما رأيت، ومنه ما كتب به إلى أبي دُلف القاسم بن عيسى، وكانت بينهما مودة، وكانا يتهاديان ويتكاتبان، ثم ولى أبو دُلف الجبل كله، وأعرض -فيما يظهر- عن أحمد فكتب إليه:

ما على ذا كنا افترقنا بشيرا ... ز ولا هكذا عقدنا الإخاء
لم أكن أحسب الإمارة يزدا ... د بها ذو الوفاء إلا صفاء

---

(١) أراغ: أراد وطلب.

(٢) هذه رواية المرزباني في الموشح، ورواية الصولي في الأوراق هكذا:

ففي الشعر فصل لو وفيت بحقه ... ونقص إذا لم توف يشهر باطله

تطعن الناس بالمثقفة السمـ ـر على غدرهم وتنسى الوفاء

وقال:

نفسي على حسراتها موقوفة فوددت لو خرجت من الحسرات
لو في يديَّ حساب أيامي إذًا ألفيته متطلبًا لوفاتي
لم أبكِ حبًّا للحياة وإنما أبكي مخافة أن تطول حياتي

وذكر من طريف شعره قوله:

أصبحت مخمورًا أحدث عن نفسي وما لي من علم بما كان بالأمس
سقاني عبيد من يديه مدامة يصرّفها لي ثم يلحى على الجلس
فيا رب يوم قد حمدت مساءه ياكرني ذمّ له مطلع الشمس
فأصبحت قد حدثت نفسي بتوبة ويعتادني للهو عندي إذا أُمسي

وقال أيضًا:

عذب الفراق لنا قبيل وداعنا ثم اقتبلناه كسم ناقع
وكأنما أثر الدموع بخدها طَلٌّ سقيط فوق ورد يانع

قال أبو بكر الصولي: هو أول من أفصح عن هذا المعنى وتبعه الناس.

عتب أحمد على جارية له في شيء سألته ألا يفعله ثم فعلت مثله فقال:

وعامل بالفجور يأمر بالبـ ـر كهاد يقود[1] في الظلم
أو كطبيب قد شفّه سقم وهو يداوي من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ ثوبك طهر أولا فلا تلم

ومن شعره:

(١) رواية ابن عساكر: (يخوض).

يـزين الـشعر أفواهًـا إذا نطقـت ... بالـشعر يومًـا وقـد يـزري بـأفواه
قـد يـرزق المـرء لا مـن حـسن حيلتـه ... ويصرف الرزق عن ذي الحيلة الـداهي
مـا مـضَّنى مـن غنـى يومًـا ولا عـدم ... إلا وقـولي عليـه الحمـد لله

وقال:

إذا قلـت في شيء: نعـم فأتمـه ... فـإن نعـم دَيـن عـلى الحـر واجـب
وإلا فقـل: لا فاسـترح وأرح بهـا ... لكـيلا يقـول النـاس إنـك كـاذب

وقال في إفشاء السر:

إذا المـرء أفـشى سره بلـسانه ... ولام عليـه غـيره فهـو أحمـق
إذا ضـاق صـدر المـرء عـن سر نفسه ... فـصدر الـذي اسـتودعته الـسر أضـيق

وقال:

يـا سـاخطًا مـن أن طربـت لزلـزل ... لـك حرمـة ولزلـزل إحـسان
أعـضبت مـن طـربي عـلى إحـسانه ... أحـسن لأغـضب أيهـا الغـضبان

وقال في الهجاء:

كأنـه مـن سـوء آدابـه ... أسـلم في كتـاب سـوء الأدب

وقال:

نفـسي عـلى زفراتهـا محويـة ... ووددْت لـو خرجـت مـع الزفـرات

ومن كلامه: مجالسة البغضاء تثير الهموم، وتجلب الغموم، وتؤلم القلب، وتقدح في النشاط، وتطوي الانبساط.

وقال: بالأقلام تساس الأقاليم.

وقال: القلم لسان البصر يناجيه بما استتر من الأسماع، إذا نسج حلله، وأودعها حكمه.

وله من كلام: قد أذهب الله وصب العلة ونصبها، ووفر خراجها وثوابها، وجعل فيها من إرغام العدو بعقباها، أضعاف ما كان عنده من السرور بفتح أولاها.

وقال: عبرات الأقلام في خدود كتبها، أحسن من عبرات الغواني في صحون خدودها.

ومما كتب به: أحق من أثبت لك العذر في حال شغلك، من لم يخل ساعة من برك في وقت فراغك.

ومن كلامه: إذا لم تقدر أن تعض يد عدوك فقبِّلْها.

كان أحمد عدوًّا لسعيد بن سالم الباهلي وولده، فذكرهم يومًا فقال: لولا أن الله عز وجل ختم نبوته بمحمد وكتبه بالقرآن، لبعث فيكم نبي نقمة وأنزل عليكم قرآن عذاب، وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوي السفل، ومساويهم فضائح الأمم.